سلطان العلماء
عزالدين بن عبد السلام

تأليف : نشأت المصرى
رسوم : محسن عبد الحفيظ
إخراج فنى : حسين الجدولية

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٥٥٦٠
الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977-6150-15-2
الطبعة الأولى : مـــايو / ٢٠٠٧م - ربيع ثاني ١٤٢٨هـ

الناشر
دار الهدى للكتاب
ش الجمهورية - بيلا - كفر الشيخ - ج.م.ع
تليفون : ٠٤٧/٣٦٠٤٦٠١ - ٠٤٧/٣٦٠٩٦٠١

أنا كم أحبك

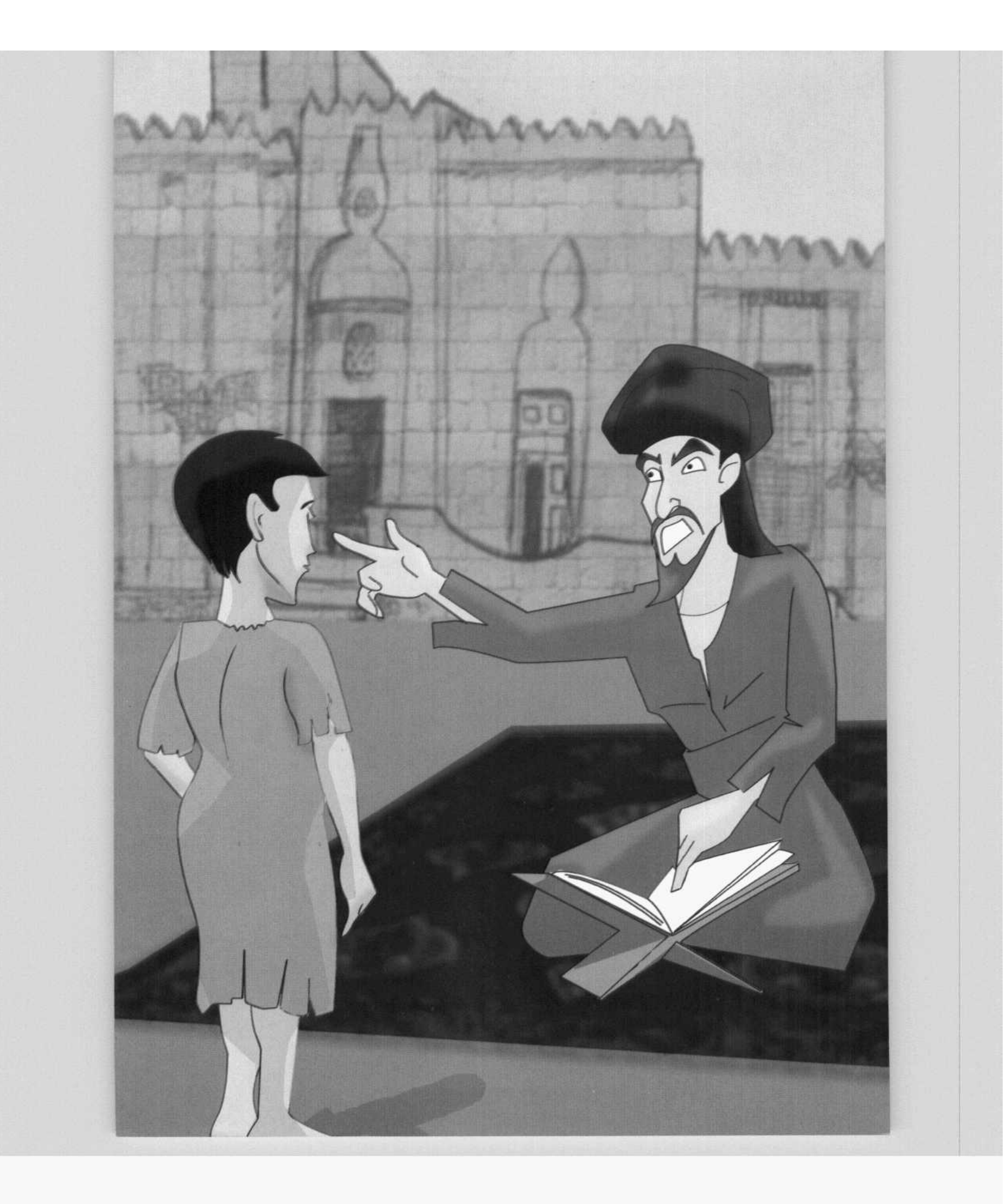
في لَيلة عَاصفَة بَاردة منْ عَام ٥٧٧ هـ وُلدَ عزُّ الدين في دمشق، وَفي صَباحِ اليوم التَّالي اسْتقبلَ وَالدُهُ عبدُ السلام تهانيَ سُكّان الْحَارَة الصغيرَة بالمَولُود الجديد، وعندَمَا انفرَدَ بنفسه فكَّرَ طويلاً في طفله الجَميل، ورفعَ يديه إلَى أعْلَى يَشكرُ اللهَ ويَدعوهُ أنْ يُوَسِّعَ رزْقَه، وأنْ يجدَ عمَلاً يُخلّصُهُ منْ فقره.

وعاشَ الطِّفلُ عزّ الدين حياةَ الفقراء، وحولَهُ أطفالٌ آخرون يَأكلونَ أشهى المأكولات، ويَلبسونَ الثِّيابَ الجديدةَ المُزَرْكشَة، ولَمْ يَطلبْ عزُّ الدين منْ أبيه شيئًا؛ لأنَّ أباهُ لن يَستطيعَ شراءَ أيَّ شيء، بلْ كانَ عزُّ الدِّين يَقولُ لأَبيه دائمًا: يَا أبي، لاَ شيءَ يَنقُصُني، أنَا كَمْ أُحبُّك.. فيَضُمُّهُ وَالدُهُ عَبدُ السَّلامِ إلى صَدرِه، ويَدعُو لَهُ بالنَّجَاحِ والغنى.

ومنذُ صغره حَرَصَ عزُّ الدّين عَلى أن يُساعدَ أبَاهُ في إصلاحِ الطُّرُق، وَحمْلِ الأَمْتعَة .. وَمنْ أَجمَلِ أوْقَات عزّ الدّينِ الْوَقْتُ الَّذي يَقضيه في الجَامعِ الأَمَويِّ بصُحبَة أبيه، وعندَمَا تُوفيَ والدُهُ عَبدُ السَّلام، قَرَّبَهُ إليه شيَخُ الْمَسجد «فخرُ الدِّين بنُ عساكر»، وألحقَهُ الشّيخُ بخدْمَة المسجد وتنظيفه ليَجدَ الطعامَ والمأوى، وَفي هذَا الْمَسجد الْكَبير رَأى وسَمعَ ما مَلأَ قلبَهُ بالأمان والنُّور.. رَأى هؤلاء العَابدينَ الطائعينَ، وذكرَ اللهَ في ألسنَتهم وقلوبهم، وسمعَ عَن الحَياة الأخرَى الخَالدَة الَّتي لاَ جوعَ فيها ولا ظلمَ ولا غُرور.

هذا شيخ وذاك شيخ

بعدَ صلاةَ العشاء.. اندَسَّ عزُّ الدّين بَينَ الطُّلاّب الْكبار في حلَقة علْم بالمَسجد، وتلَقَّى صَدمةً لمْ يتوقَّعْهَا، لقَدْ أنَّبَهُ شيَخُ الحَلقَة بعُنف لأنَّهُ جلَسَ بيْنَهم بثيَابه المُمزَّقَة، فَانسَحَبَ إلى رُكْنٍ وبَكى، وَحينَ التقَاهُ الشّيخُ فَخرُ بنُ عساكر، حكَى لَهُ مَا جرَى، فَحنَا عَليه، ولمْ يترُكْهُ إلاَّ وهُوَ يَضحَك، وقالَ لَه: مَن يَدري.. رُبَّمَا تُصبحُ يومًا شيخًا ومُعلمًا كبيرًا.



وضمَّه إلى تلاميذ المسجد، وتولَّى الإنفاقَ عَليه، وأظهرَ عزُّ الدِّين نُبوغًا مُبكِّرًا في حفظ القرآنِ والأحاديث، ومَضى يَتزوَّدُ من مختلَف العُلوم، وقرأَ في تُراث اليونان، ومصرَ القديمة، والهند، وفارس (إيران)، وعُنيَ بالفلسفة والتصوُّف، وذاتَ ليلة جاءَهُ في المنامِ من يسألُه: أتُريدُ العلمَ أمْ العَمل؟ فأجاب :

العلم؛ لأنَّهُ يؤدِّي إلى العمل.

وفي العَاشرةِ من عمره اهتزَّتْ دمشقُ لنبأ موتِ السهروردي الزَّاهد الصُّوفيِّ في السجنِ جُوعًا؛ لأنه خالفَ الحاكمَ وبعضَ الفقهاء، وتألَّمَ عزُّ الدِّين كثيرًا؛ فَقدْ أعجبَه فكرَ السهروردي الذي يوفِّقُ بينَ الفلسفةِ والدِّين.

ومرَّت السَّنوات، فَرَحلَ عزُّ الدِّين إلى العراقِ لمُقابلة شُيوخِ الحديث، ثمَّ عَادَ وَاستوعبَ علمَ الكلامِ الَّذي يَتكلَّمُ عَنِ الله وصِفَاته وَأسمَائه..

ملامح شخصيته

بعدَ أنْ تُوفِّيَ البطلُ صَلاحُ الدِّين الأيُّوبيُّ تمزَّقت دولتُهُ الشَّاسعةُ إلى دُويلات (دول صغيرة) يُصارعُ بعضُها بعضًا، وأصبحَت الدَّولةُ الإسلاميةُ الكبرى مَطمَعًا للتتار الصليبيينَ، وفي فترات الضَّعف يَلجأُ الحاكمُ إلى الاستبداد والإرهاب، ويَخشَى العَديدُ من الْعُلمَاء بَطشَ الحاكم؛ فيكتفونَ بحياة الانطواء والزُّهد، لكنَّ عزَّ الدِّين اختارَ التضامنَ مَعَ العُلماء الشُّرفاء الذينَ اختارُوا المقاومةَ، وعرَفت المساجدُ خُطبَ عزِّ الدينِ الجَريئة، وَابتعدَ عن السَّجعِ المُنتحلِ، ولَمْ يمدَحِ المُلوكَ.

وقَدْ أهَّلَهُ نُبوغُهُ لتدريسِ الدِّينِ وَالْفقه في سنٍّ مُبكِّرَة، وجَذَبتْ شخصيتُهُ عُقولَ وقلوبَ السامعينَ؛ فهوَ مَرِحٌ، وديعٌ، مُتوسطُ الطّول، خفيضُ الصوت، لاَ يَرُدُّ سائلاً أو صَاحبَ حاجة، نحيلُ الجسم، يَهابُه ويَحترمُهُ من يَجلسُ معَه، وفي عهد الملك الأشرف، حين حدَّدَ الأشرفُ إقامةَ الشيخِ عزِّ الدِّين في بيته لا يغادرُهُ ولا يلتقي بأحدٍ كعقابٍ له، حدَثَ ذاتَ ليلةٍ مُقمرَةٍ أنْ هاجمَ بستانَه الصغيرَ جماعةٌ من أعدائه

المُفسدينَ، وأحاطُوا بداره، فأصابَ أهلَ الشيخِ الخوفُ، فنـــزَلَ عزُّ الدّينِ إلى هؤلاء المفسدينَ وفتحَ الْبابَ وقالَ لَهمْ:

أهلاً بضُيوفنا

وأدْخلَهُم إلى بيته، وأجلسَهُم في مَكانِ الضُّيوفِ الأَحبّاء، وَانتظَرَ عزُّ الدِّين ما يَفعلُونَ، فمَا فَعلُوا منْ شيء، بلْ أنصتُوا للشيخِ وكأنّهم جاءُوا للدّرس، لَقدْ أنزلَ اللهُ في قُلوبهم الخَوفَ والحرجَ، ثُم أحضَرَ الشيخُ طَعامًا لَهمْ فأكلُوا حتى شبعُوا، وَقَبلَ أن ينصرفُوا طلبُوا منْهُ الدُّعاءَ، وعَادُوا فَرحينَ بلقائه نَادمين عَلَى مَا فعلُوا.

وعندَمَا تولَّى المَلكُ الْكَاملُ حُكمَ مصرَ، جَلسَ إلى الشُّيوخِ وَاسْتمعَ إليهم، ولَمْ يُجبرْ عَالمًا عَلَى اتّباعِ مَذهب، وَأرسَلَ إلَيه عزُّ الدّين بنُ عبدِ السلامِ يَشكرُهُ على رعايته لحرِيَّة العلماءِ والمُفكرين، وَمنْ نَاحيَة أُخرَى، أَرسلَ المَلكُ الْكَاملِ إلى أخيه الملك الأشرف حاكمِ دمشقَ يُوصيه خيرًا بالعالِمِ الشاب عزِّ الدين.

فضيلة الاعتراف بالخطأ

سطعَ نَجْمَ عزِّ الدِّين في دمشق، وَوَثقَ الناسُ في الفتاوَى التي يُصدرُها، وذاتَ مرَّة.. سَأَله رَجلٌ في أمرٍ فأفتاه، وبَعدَ انصرافه تَبيَّنَ خطأَ الفتوَى، ولَمْ يكنْ عزُّ الدِّين يَعرفُ شيئًا عن الرَّجلِ، فَأطلقَ عددًا منْ رجَاله في الأسواقِ والطُّرُقات والمَساجد يُنادُونَ في الناس: « مَنْ صدرَت لهُ فُتيَا – فَتوَى– بالأمسِ منْ عزِّ الدِّين بنِ عبدِ السلامِ فَلاَ يَعمَلُ بها؛ فهيَ خَطأ، ولْيَعدْ إلى الشيخِ لِيُخبرَه بالرَّأي الصَّواب.

وَكانَ عزُّ الدِّين يَرى أنَّ العَالمَ الحَقَّ يَجبُ أن يَتحرّكَ لِيُغيِّرَ المفاسدَ في المُجتمَع، وَلاَ يَكتفي بالصَّمت، فَكانَ يَتحرّكُ في الأسواقِ ويَأمُرُ بالْمعرُوف وينهَى عن المُنكرِ، ويَعترِضُ عَلَى مَا يَفعلُه المُرتشونَ والظالمونَ والغشاشونَ.

مع الملك الأشرف

أحبَّ الناسُ الشيخَ عزَّ الدينِ، وكرِهَهُ الحكامُ الظالمونَ، وكذلكَ كرِهَهُ العلماءُ المنافقونَ الذينَ يتقرَّبون إلى الحكامِ ويَسكتونَ عن أخطائهم من أجلِ الهدايَا والمناصب، وبدافعٍ من الحقد أبلغَ العلماءُ المنافقونَ الملكَ الأشرفَ أنَّ الشيخَ عزَّ الدينِ يُحرِّضُ الشبابَ ضدَّ العُلماءِ وضدَّ الملك، لكنَّ الأشرفَ تمهَّلَ تقديرًا لمشاعرِ الملكِ الكاملِ.

فماذَا يَفعلُ الملكُ الأشرفُ وقدْ تمَّ تعيينُ الشيخِ عزِّ الدِّينِ شيخًا بالجامعِ الأموي؟ والشيخُ لا يَسعَى للقاءِ الملكِ مثلَ غيرِه، ولَا يتقربُ إليه.

وكانَ يُحيطُ بالملكِ الأشرفِ جماعةٌ منَ المُتشددينَ الحمقَى الّذينَ يَختلفونَ معَ الشيخِ في فكرِه، فزعَمُوا للملكِ أنَّ الشيخَ يُخالفُ السَّلفَ (السابقين) إلى حدِّ الكفرِ! وتابعُوا الإفسادَ بينهُمَا، وانتهت الوشاياتُ بأنْ أصدرَ الملكُ أمرًا بتحديدِ إقامةِ الشيخِ في منـــزلِه، فلَا يَقومُ الشّيخُ بالفتوَى، ولَا يَجتمعُ بأحدٍ.

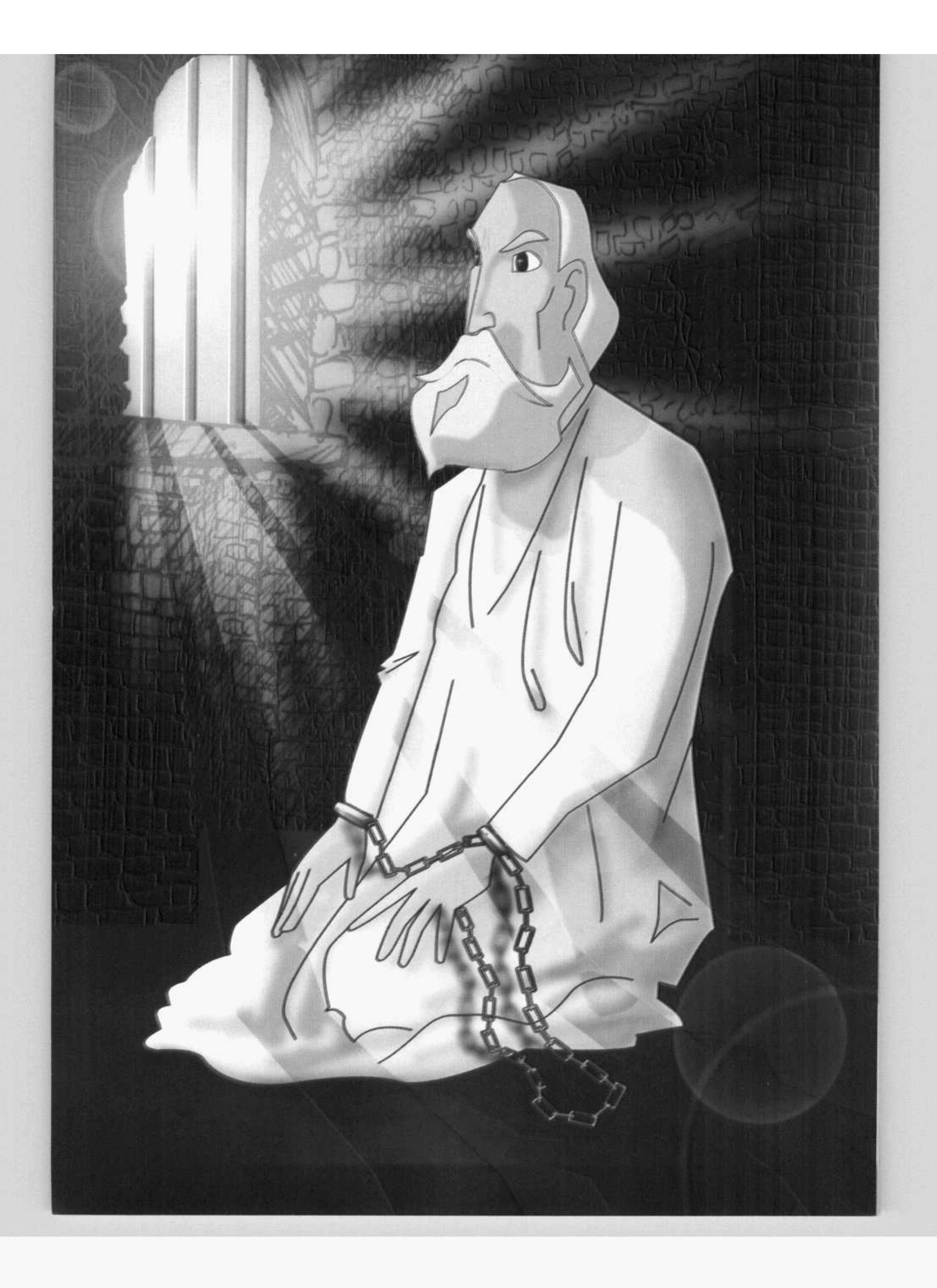
وبَعْدَ حينٍ أدْركَ المَلكُ أنَّ الشَّيخَ علَى حقٍّ فعفَى عنه، وعندمَا زارَ الملكُ الكَاملُ دمشقَ التقَى بالشيخِ، وأصدرَ الملكُ الأشرفُ مَرسومًا (قرارًا) بتعيينِ الشيخِ خطيبًا للمَسجدِ الأموي. ورغمَ انتصارِ الشيخِ لمْ يُحاولْ الالتقاءَ به.

وأصابَ الملكَ مرضٌ طويل، فزارَهُ الشّيخ، وطلبَ منه الملكُ أن يصفحَ عنه؛ عسى اللهُ أن يغفرَ له..

فمَاذَا كانَ ردُّ الشَّيخِ صاحبِ القلبِ النقيِّ الصافي؟

قال له: إنني كلَّ ليلة أتسامحُ معَ الخلقِ، وأبيتُ وليسَ عندَ أحدٍ مَظلَمةٌ، وأرى أن يكونَ أجري علَى الله، ولا يكون على الناس، فهذَا أحبُّ إليَّ..

لمْ يَستوعبْ الملكُ تلكَ المعاني، وأرادَ أن يكسبَ الشيخَ إلى صفِّه ، فقدَّمَ إليه مبلغًا ضخمًا من المالِ كهديَّة.. فمَاذَا فعلَ الشَّيخُ؟



ردَّ المالَ إليه قائلاً: هذا اجتماعٌ لله، لا أكدِّرُهُ بشيءٍ من الدُّنيا

ثم تحدَّثَ الشيخُ عن أهلِ التقوى والصلاحِ أنهم يُفضِّلونَ ما عندَ الله عَلى مَا عندَ الناس.

التصدق بكل ما يملك

كَانَ الشَّيخُ كَثيرَ الصَّدقَات، وذَاتَ مرَّةٍ لَمْ يَجِدْ مَا يَتصَدَّقُ بِهِ فَاقْتطَعَ جُزْءًا من قُماشِ عمَامته وأَعْطَاهُ إلى السَّائلِ.

وَحينَ كَانَ الشَّيخُ بِدِمشقَ وَقعَ غَلاءٌ كَبيرٌ حَتّى صَارَت البَسَاتينُ تُباعُ بالثَّمنِ القَليل، فَأعطتْهُ زَوجتُهُ مَصاغًا لَهَا وقَالَتْ:

اشْترِ لَنَا به بُستَانًا نُصَيِّفُ به.

فَأخذَ الشَّيخُ ذَلكَ المَصاغَ وَبَاعَهُ، وَتصَدَّقَ بثَمَنه.

فقَالتْ: يَا سَيدي، هَلِ اشْتريتَ لنَا؟

قَالَ:نعمْ، اشْترَيْتُ بُستانًا في الجَنة، إني وَجدتُ النَّاسَ فِي شدَّةٍ فَتصَدَّقْتُ بثَمنه.

فقَالتْ لَه: جزَاكَ اللهُ خيرًا .

الشيخ والخائن

خطَّطَ الصَّليبيُّونَ للاسْتيلاءِ عَلَى مصرَ وَالشَّامِ وَفلسطين، وَحَاوَلَ مَلكُ مصْرَ الصَّالحُ نَجْمُ الدِّينِ أيُّوب أن يَتعَاونَ مَعَ مَلكِ دمشقَ الصَّالحِ إسماعيلَ لمُحاربَةِ الصَّليبينَ، فَرَفضَ المَلكُ الصَّالحُ إسماعيل، فَحَرَّكَ نجمُ الدِّينِ أيوب جيُوشَه لضَمِّ دمشقَ إلى مصرَ لتوحيدِ الجبهَةِ ضدَّ الغزاة، عَلى أثرِ ذَلكَ تَحَالَفَ الصَّالحُ إسماعيلَ معَ العَدُوِّ، وَسَمحَ لجُنودِ العَدُوِّ بدُخُولِ دمشقَ وَشراءِ السِّلاحِ منهَا،فَمضَى الشيخُ

عزُّ الدين يُنادي في كُلِّ مكَان بأنَّ بيعَ السلاحِ للعدُوِّ الصَّليبيِّ حرامُ، ومنْ يَقُومُ بذلكَ خائنٌ لله والرَّسول، ويَحلُّ قتلُه.

واصَلَ مَلكَ دمشقَ التآمرَ والخيانة، فترَكَ للعَدُوِّ صيدًا وبعضَ مُدُن فلسطين، فأعلَنَ الشَّيخُ أنَّ السّلطانَ خائنٌ هُوَ ومَن اتَّبعَهُ وأيَّده، وأَصْدَرَ هُوَ والشَّيخُ ابنُ الحَاجب فُتيا بوُجُوب خلّعه وإبعاده عَن الحُكم، فأمَرَ الملكُ بسجن الشيخَين بتُهمة إثارة الفتنة، وطَالَ تَجمهُرُ النَّاسِ حوْلَ السِّجنِ ساخطِينَ عَلَى المَلك، فاضطرَّ بعدَ حينٍ إلى إطلاق سَراحِ الشَّيخَين منَ السِّجن، ومنَعَ عزَّ الدِّين من مُمارَسَة أيِّ عملٍ، وحدَّدَ إقامَتَهُ في دَاره للمرَّة الثَّانية. ووَقفَ الشَّيخُ طَويلاً عندَ الآية الكريمَة:

﴿ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾(النساء آية ٩٧).

وعَرَضَ الشَّيخُ عزُّ الدِّين عَلَى المَلك مُغادرَةَ دمشقَ إلى القَاهرة، وبعدَ مُفَاوضات طَويلَة وَافقَ مَلكُ دمشقَ عَلَى أن يُسافرَ في آخرِ الليلِ حتى لاَ يَثُورَ النَّاس.

وكَانَت رحْلَةُ السَّفَرِ شَاقَّةٌ وَمُؤلمَةٌ استمرَّتْ عَامًا كَاملاً..

أثْناءَ ذَلكَ تَحرَّكتْ جُيوشُ مَلك دمشقَ وحُلفَائه تُساندُهُمْ جُيوشُ الأعداءِ الصَّليبيينَ للاستيلاءِ عَلَى مصرَ بعدَ القُدس.

وَفي مُنْتصَف الطَّريقِ فَكَّرَ مَلكُ دمشقَ في إغراءِ وَتَهديد الشَّيخ عزِّ الدِّين وإعادَته إلى دمشقَ، فقَالَ رَسولُ المَلك إلى الشَّيخ: بينَكَ وبينَ أنْ تعودَ إلى مَنصبكَ وما كُنتَ عَليه وزيَادَة، أنْ تَخضعَ للسُّلطان، وتُقبِّلَ يَدَه.

فقالَ الشَّيخُ : وَاللهِ يا مِسْكينُ ما أرْضاهُ أنْ يُقَبِّلَ يَدَيَّ، فَضلاً عَنْ أنْ أُقَبِّلَ يَدَه، يا قَوم، أنتمْ في وادٍ وأنا في وادٍ آخر، وَالحَمْدُ للهِ الَّذي عَافَاني ممَّا ابْتلاكُمْ به.

هدَّدَهُ المَلكُ – عَنْ طَريقِ رَسُوله – بالاعْتقال، فَلمْ يَتراجعْ، فَاعتَقلُوهُ في خَيْمَةٍ إلى جَانب خَيْمَة السُّلطَان.

وَعَلِمَ مُلوكُ الصَّليبينَ بقصَّة الشَّيخِ الَّتي خَتَمَهَا المَلكُ الصَّالحِ بقَوله لَهُمْ:
لَقدْ جَدَّدتُ حَبسَ الشَّيخ وَاعتقالَهُ لأجلكُمْ.

فَقَالَ مُلُوكُ الأعدَاء: لَوْ أنَّ هذَا قسِّيسَنَا لغَسَلْنَا رِجْلَيه وَشربْنَا مَاءَ الْغَسيلِ.

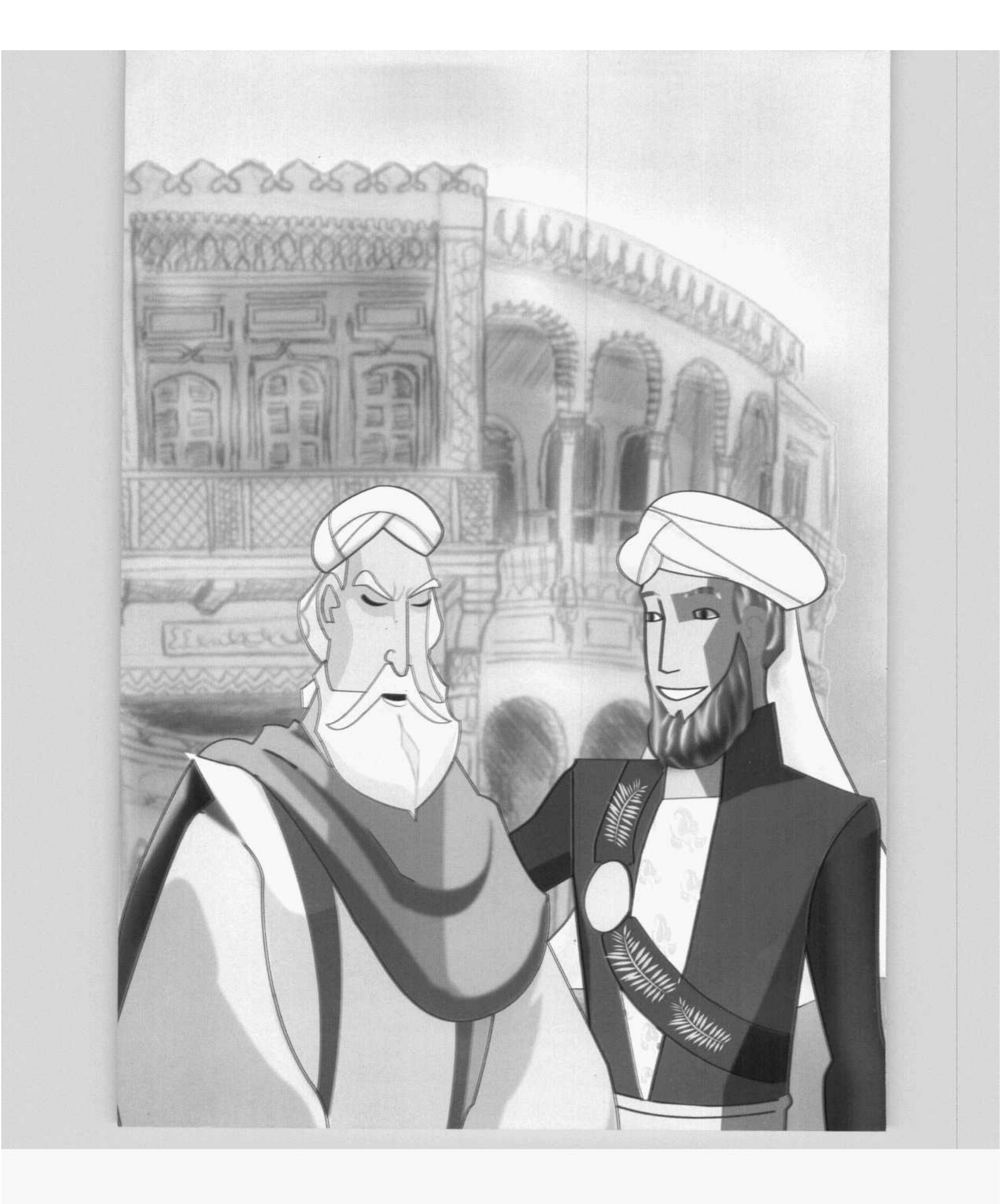
وأقبَلَ الْجيشُ المصريُّ، وَانتصرَ عَلَى الصَّليبين، وَانْطَلقَ الشَّيْخُ إلى القاهرَة وَاسْتقبَلَهُ أهْلُ القَاهرَةِ اسْتقْبالَ العُظمَاءِ بالوُرُود وَعُرُوض الْخَيْلِ وَالمَلابس الجَديدَة، وَأقامَ هُوَ وَأسْرَتُهُ في مَسْكَنٍ جَميلٍ عَلَى النِّيل اشْترَاهُ لَهُ أهْلُ مصْرَ هَديَّةً لَهُ، وَإعْجَابًا به.

وَعُيِّنَ الشَّيْخُ إمَامًا وَخطيبًا لأَهَمِّ الْمَسَاجد آنذَاك – جامع عمرو – كمَا تَوَلَّى مَنصبَيِّ قَاضي الْقُضَاة، وَمُفْتي مصْرَ.

حين سقط السيف

في عَهد المَلك الصَّالح أيوب، كانَ المَماليكُ الأتراكُ أصحَابُ نُفُوذٍ قَويٍّ، وسَيطَرُوا عَلَى أعْلَى المَنَاصب، وَلَمَّا رَاجعَ الشَّيخُ تاريخَهُم اكْتشفَ أنهمْ لَيسُوا أمَراءَ، وَإنَّمَا عَبيدٌ لَمْ يُعتقُوا بعدُ، وَلاَ يَجوزُ أنْ يتولَّوْا وَظَائفهم.. فَطَالبَ بأن يَتمَّ عَرْضُهُمْ في مَزَادٍ عَلَني، ثُمَّ يَتمَّ شرَاؤُهُمْ، ثُمَّ يَعتقُهُم الْمُشتري ليُصبحُوا أحرَارًا.

ثَارَ الْمَمَاليكُ ضدَّ الشَّيخِ، وَاتَّجهَ كَبيرُهُمْ – وكَانَ نَائبًا للمَلك – إلى بَيت الشَّيخ غَاضبًا يُريدُ أنْ يَقتُلَهُ بسَيفه ، وَحينَ دَخلَ عَلَيه، وَوقعَ بَصرُ الشَّيخ عَلَى النَّائب



تجمَّدَتْ يَدُ النَّائب مِنْ هَيبَة الشَّيخ، وَسَقَطَ السَّيفُ مِنها، وَظَلَّ يرتعدُ ويَرتَعش، وَسأَلَ الشَّيخَ أَنْ يَدعُوَ له، ثُمَّ انْصَرفَ خائفًا آسفًا.

وَطَلبَ الْمَلكُ مِنَ الشَّيخِ أَنْ يَتراجعَ عَن هَذَا الْحُكْمِ باعْتبارِ أَنَّ هذا الْموضوعَ يَخُصُّ الْمَلكُ وَحدَه، فَأَصرَّ الشَّيخُ عَلَى مَوْقفه.

وَفي صمتٍ، جَمعَ الشَّيخُ أمتعَتَه، وأَركبَ أَهلَه حَميرًا، وَسَارَ خَلْفَهُم على قدمَيه يُريدُ مُغادرةَ مصر، وَمَا أن عَلمَ النَّاسُ حتى لاحقُوهُ في الطريقِ فرَفَضَ الرُّجوعَ، وشعَرَ المَلكُ بالقَلَقِ، فلَحِقَ بالشَّيخِ، وَوَعَدَهُ بتنفيذِ مَا قَضَى بِه، وَاشْترى الأُميرَ المَماليكَ مِن مَالِه في مَزَاد، ثُمَّ أعتَقَهُم ليكُونُوا أحْرارًا، ودَخَلَت الأموالُ خزائنَ الدولة.

السلطان القط

طَلعَ الشيخُ إلى القَلعَة لمُقابلةِ السُّلطَانِ في يَومِ عيد، وكَانَ العَسكرُ مُصطَفِّين بينَ يديِّ السّلطَان– وهُو جَالسٌ في زينته الكَاملَة – وَأخذَت الأُمراءُ تُقَبِّلُ الأرضَ بينَ يديِّ السُّلطان.

التَفتَ الشَّيخُ إلى السُّلطَانِ ونَادَاه:

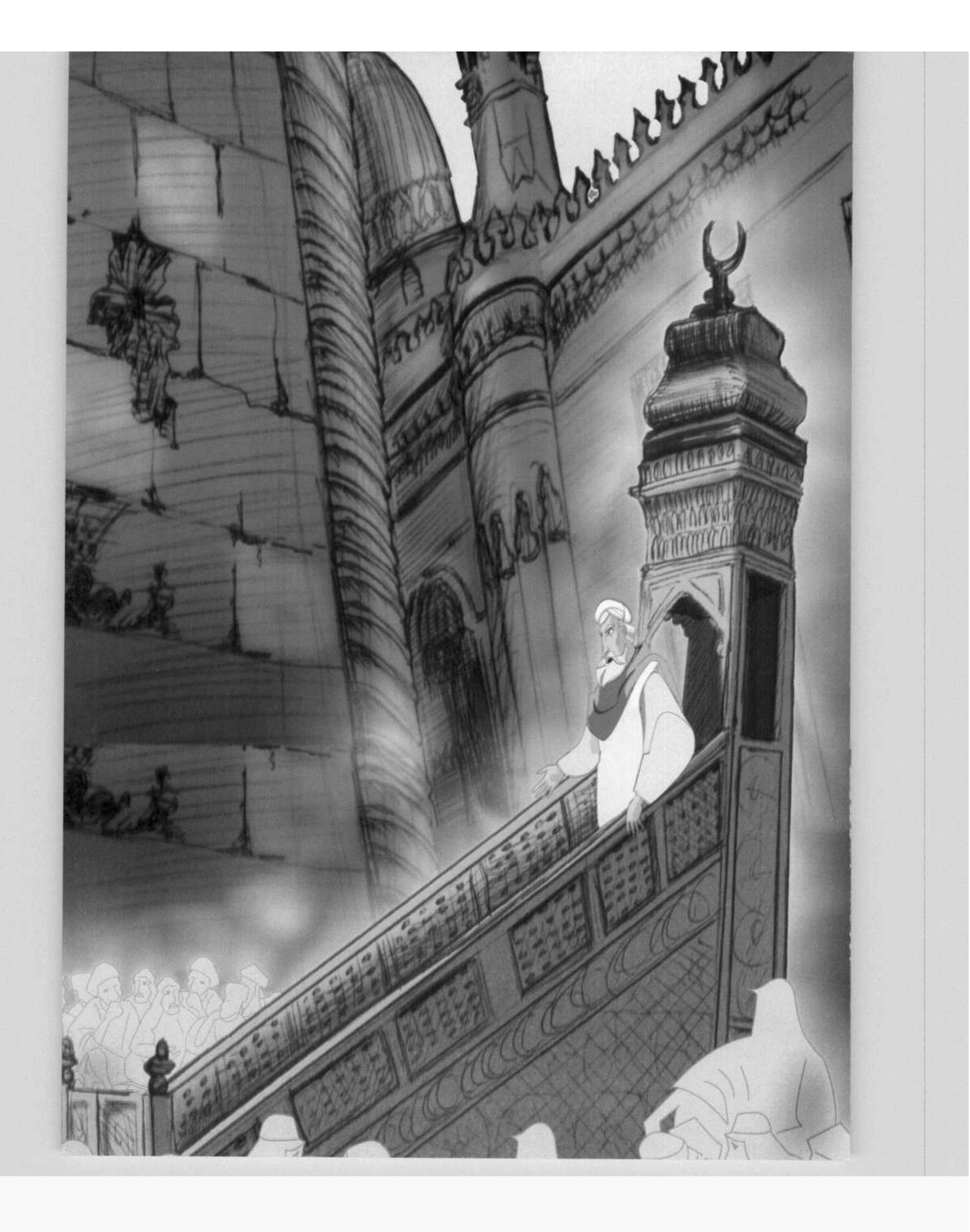
يَا أيوب، مَا حُجّتُك عندَ الله إذَا قالَ لك: أَلَمْ أُعطِكَ مُلْكَ مصرَ ثُمَّ تَبيعُ الْخُمُور؟

قَالَ السُّلطان: هَلْ جَرَى هَذَا؟

قَالَ الشَّيخُ: نَعَمْ، حَانَةُ كَذَا تَبيعُ الخُمورَ وغَيرَهَا من المُنكَرات، وأنتَ تتقلّبُ في نعمَة هَذه المَملكَة. يَا سَيِّدي، قَالَ السُّلطان : هَذَا أنَا مَا عَملْتُه، هذا مِنْ زَمانِ أبي.

قَالَ الشيخُ: أأنتَ مِنَ الَّذينَ يقولون «إنَّا وَجدْنَا آبَاءَنَا عَلى تلكَ المِلَّة وَالدِّين»؟

هُنا اضطرَّ السّلطانُ إلى الاستجَابةِ لمطَالبِ الشّيخ،وأصدَرَ أمرًا بإغْلاَقِ تلْكَ الحانة.



وعندما ذَاعَ هذَا الخبرُ بينَ النَّاسِ، سألَ أحدُ التلاميذ الشَّيخَ عنْ سَببِ هَذه المؤاخذَة والانتقَاد أمَامَ الناسِ في مثلِ هذَا اليَومِ العظيمِ.

أجَابَ: يا بني، رأيتُه في تلك العظمة، فأردتُ أنْ أُهينَهُ لكيلاَ تكبرُ عليه نَفسُهُ فَتُؤذيه.

فقالَ التلميذُ لأستاذه الشّيخ: أمَا خفْتَ منْه؟

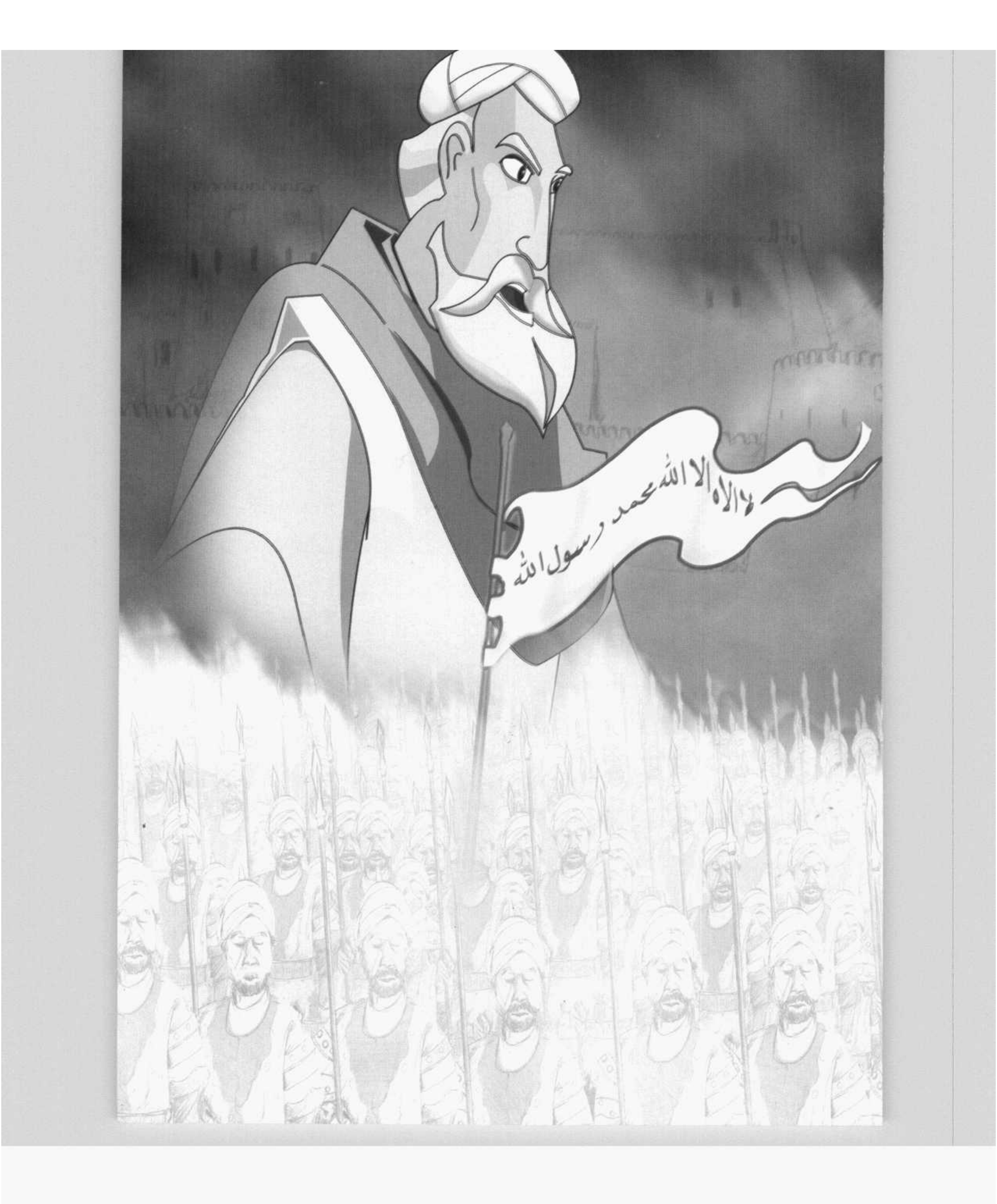
فَقالَ الشَّيخُ: واللهِ يا بني، استحضرتُ هَيبةَ اللهِ تعالي، فَصَارَ السلطان أمامي كالقط.

الشيخ والحرب

تحركتْ قوّاتُ الغزوِ الصَّليبيِّ إلى دمياط بقيادةِ لويس التاسع ملك فرنسا، فتفرَّغَ الشيخُ لدعوةِ الأمَّةِ إلى الجهادِ، وَذهَبَ هوَ والشيوخُ إلى دمياط للاشتراك في الجهاد المُقدَّسِ، وتحقَّقَ النّصرُ العظيمُ بتغلُّبِ المصريِّين عَلَى الأعداء، وأُسِرَ لويس التاسع.

رَجعَ الشُّيوخُ إلى القاهرة، وطَالبُوا مُلوكَ المسلمينَ بالاتِّحاد لمُواجهة خطرِ التتارِ الذي هدَّدَ العالَمَ كُلَّه، لَكنَّ مُلوكَ العربِ والمُسلمينَ لاهونَ في التَّرفِ، خَائفونَ من الحرِّية وَالوحدة، ودمَّرَ التتارُ بغدادَ عام ٦٥٦ هـ تدميرًا وحشيًّا، وأغرقوا المكتبةَ الشهيرةَ في نهرِ دجلَة، وقَتلُوا الآلاف – وهي المأساةُ التي تتكرَّرُ فُصولُها الآنَ في العراق على يد أمريكا. وزحفَ التتارُ إلى الشام، واستبدَّ الرُّعبُ بالملكِ النَّاصرِ مَلك دمشق، فأرسَلَ ابنَهُ إلى «هُولاكو» قائدِ التتارِ يَطلُبُ منهُ الأمانَ، فرَدَّ عليه ردًّا فيه سخريةٌ وتهديد، ومِمَّا جاء «سَارِعْ برجالكَ وأموالكَ وفرسَانكَ إلى طَاعَة سُلطَانِ الأرض – يقصدُ نفسه – تأمَنْ شرَّه وتنلْ خيرَه».

ولأنَّ التتارَ لاَ وعدَ لَهم، التجأَ المَلكُ النَّاصرُ إلى مصرَ يَستنجدُ بجيشهَا.. فجَمَعَ الأميرُ قطز – وهوَ الوَصيُّ عَلَى العرْش – رجالَ الدوْلة والفقهَاء والقادة، وَأعلنَ أنَّ الحربَ تحتاجُ إلى أموالٍ ، وبيتُ المــــال (خزينةُ الدولة) خَالٍ منَ الأمــوال ، واقترَحَ


لا الاه الا الله محمد رسول الله

البعضُ جمعَ أموالٍ من الرَّعيةِ (الشعب) بفرضِ ضرائبَ جديدة.. عندئذٍ وَقفَ الشيخُ عزُّ الدِّينِ وَقفتهُ الشهيرة، وَطَالَبَ الأمراءَ والجندَ المماليكَ أن يبيعوا أولاً مَا يَمتلكونَ مِنْ ذَهبٍ وفِضَّةٍ وأشياءَ ثمينة، بحيث لا يَبقى للجنديِّ والقائدِ إلا السِّلاحُ فقط.

عَلَى الفورِ طبَّقَ قطز مَا قالَ به الشَّيخُ، وتمَّ تجهيزُ الجيشِ، وخاضَ جيشُ مصرَ معركةَ «عين جالوت»، وهزَمَ التتارَ، فأنقذتْ مصرُ العالَمَ كلَّهُ مِنْ وُحوشِ الدَّمَار.

نبوءة الشيخ

في الثالثةِ والثمانينَ مِن العُمرِ، أصابَ الشيخَ مرضٌ شديد – وكانَ قدْ تنبأَ من قبلُ بأنهُ سيموتُ في هَذهِ السِّن – وزارَهُ السّلطانُ الظَّاهرُ بيبرس، وكانَ الشيخُ علَى وشْكِ الموتِ، فَاستأذنَ السلطانُ الشيخَ أنْ يُعيِّنَ أبناءَهُ مكانَهُ في مناصبه.

فماذا قال الشيخ وقد أتته فرصة ثمينة يضمن بها مستقبل أولاده؟ قال – وسط دهشة الجميع– : ليسَ فيهم من يُصلح؟ المدرسةُ الصَّالحيةُ للقاضي تاجِ الدِّين.

وسَمعَ الشَّيخُ حَديثَ النَّاسِ عَنْ كَرَامَاته التي ظهرَتْ في الحرْبِ وغيرِها، فأنكرَهَا غَاضبًا. وتُوفِّيَ هذَا العَالمِ الثَّائرِ وهوَ بينَ أبنائَهِ وتلاميذه، وهوَ يُفسِّر الآيةَ الكريمةَ: ﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾.

ورحَلَ سُلطانُ العلماءِ إلى رَحمةِ ربِّه عام ٦٦٠ هـ، ودُفِنَ في سَفحِ المُقطَّم، وشهدتْ مصرُ جنازةً مَهيبة، وبكاهُ رجالُ مصرَ ونساؤها وأطفالُها، وشاركَ السلطانُ في حَملِ نعشه، وقال –رغم حزنه الشديد–: الآن استقرَّ أمري في المُلك، لأنَّ هذا الشيخَ لو كانَ يقولُ للناسِ اخرجوا على السلطانِ لانتزعُوا المُلكَ منِّي...رَحمَهُ الله.. عَاشَ عَظيمًا ومَاتَ كَرِيمًا.